عظة الأب جوزف عبد الساتر

في القدّاس الإلهيّ من أجل الراقدين على رجاء القيامة

الذكرى التاسعة لانطلاقة جماعة "أذكرني في ملكوتك"

دير مار الياس– انطلياس

٢٠١٨/٢/٨

باسم الآب والابن والرّوح القدس، الإله الواحد، آمين.

"فجاء صوتٌ مِن السَّماء يقول: "قد مجَّدتُ، وسأُمجِّد أيضًا" (يو ١٢: ٢٨)

في ذكرى مرور تسع سنوات على ولادة جماعة "أذكرني في ملكوتك" في هذه الرعيّة، نسمع اليوم من خلال هذه الجماعة صوتَ الله الآب من السّماء، يدعونا إلى عيش شراكة الصّلاة مع أمواتنا الّذين سبقونا إلى بيته، ليُعِدُّوا لنا مكانًا في السّماء. إنّ الله سيذكُرنا بالطبع في ملكوته، إذ إنّنا ذَكرنا أمواتنا في صلاتنا، وصلّينا لأجل راحة نفوسهم.
في الرسالة الّتي تُليت على مسامِعنا، يقول القدّيس بولس لتلميذه تيموتاوس: "لقد تَبِعْتَ تعليمي، وَسِيرَتِي، وَقَصْدي، وَإِيماني، وأَناتي، وَمَحَبّتي، وثباتي، واضطهاداتي، وآلامي، كالّتي أصابَتْني في أَنْطاكِيَة وإِيقُونْيَةَ ولِسْتَرَة، وأيَّ اضطهاداتٍ احتَمَلْتُ!"(٢ طيم ٣: ١٠- ١١)، ويُضيف قائلاً: "فجميع الَّذين يريدون أن يَحيَوا بالتَقوى في المسيحِ يسوع يُضطَهَدون"(٢ طيم ٣: ١٢). إذًا، إنّ كلّ مَن يقرّر اتّباع الربّ والسَّير في طريق التقوى، سينال نصيبه مِنَ الاضطهادات، التّي من شأنها أن تقوّي إيمان المؤمِن، لا أن تجعله يغار من الأشرار الّذين، حسب قول بولس، "يتمادون في الشَّر مُضَلِّينَ الآخرين، وهم أنفسهم مُضَلَّلون" (٢ طيم٣: ١٣). إنّ الربّ قد تجسَّد في أرض البشر وغلب الشَّر بالحبّ.
إنّ هذا النّص الإنجيليّ الّذي تُليَ على مسامعنا، يأتي بعد حادثة إقامة لعازر مِنَ الموت، وبعد دخول المسيح يسوع مَلِكًا إلى أورشليم. لم يتمكّن الشَّعب اليهوديّ من معرفة المسيح على الرّغم من مسيرة الله مع شعبه عبر التّاريخ وتحضيره لمجيء الربّ. في تصرّف اليهود واليونانيّن في هذا النّص، نجد تطبيقًا عمليًّا للآية الكتابيّة القائلة: "جاء إلى بيته، وما قَبِلَه أهل بيته. أمّا الّذين قبلوه، وهم الّذين يؤمنون باسمه، فقد مكّنهم أن يصيروا أبناء الله" (يو١: ١١). إنّ الحبّ وحده يستطيع أن يكسر كلّ الحواجز، بدليل أنّه خرق قلوب الوثنيّين، فجاؤوا باحثين عن المبشِّر بالحبّ، ألا وهو يسوع المسيح.

لقد صلّى الربّ يسوع إلى الله أبيه قائلاً: "يا ربّ مجِّد ابنك"، فاستجاب الآب له حين سُمِع صوتٌ من السّماء يقول: "مجَّدتُ وسأُمجِّد". مع ختام هذا الإصحاح، يُنهي الإنجيليّ يوحنّا كلامه عن مسيرة يسوع التبشيريّة في هذه الأرض، ليبدأ في الإصحاح التّالي الكلامَ عن آلام المسيح. إذًا، على كلّ مؤمِن أن يتحضَّر للصّلب والاضطهادات، إن كان يريد أن يعيش عمق المحبّة مع المسيح. إنّ اعتقاد بعض الحاضرين أنّ هذا الصّوت الّذي سُمِع من السّماء هو صوتُ رعدٍ، هو دليلٌ على انتظارهم للمسيح، ملِكًا قويًّا، يبطش بالآخرين مُحقِّقًا طموحات الشَّعب الدُّنيويّة. أمّا الّذين اعتبروا أنّ الصّوت الّذي سُمِع من السّماء هو صوتُ ملاكٍ، فَهذا يشير إلى أنّهم بدأوا يَتلمَّسون حقيقة الربّ. بعد سماعه هذا الصّوت، قال يسوع لجميع الحاضرين إنّ هذا الصّوت لم يكن من أجله بل من أجلهم.

"**إنَّ حبّة الحنطة الّتي تقع في الأرض، إن لم تَمُت تبقى** وحيدة. وإذا ماتت أخرجَتْ ثمرًا كثيرًا" (يو ١٢: ٢٤)، أي أنّ على الإنسان أن يموت عن ذاته إنْ أراد أن تُثمر حياته حياةً للآخرين. ولا نقصد بالموت هنا، الموت الجسديّ، إنّما نقصد به قيام الإنسان بالتضحيات وبأعمال الحبّ تجاه الآخر، إذ لا يمكن لحياةٍ جديدة أن تنمو، دون أن تضمحلّ حياةُ آخر. إنّ الربّ يدعونا إلى الخدمة، حين يقول: "مَن أراد أن يخدمني، فليتبعني، وحيث أكون أنا، هناك يكون خادمي، ومَن خدمني أَكرَمَه أبي" (يو ١٢: ٢٦).

اليوم، هو الخميس الثاني من الشَّهر، وفيه نجتمع في هذه الكنيسة المباركة، كما في كلّ شهر، مع جماعة "أُذكرني في ملكوتك"، لنصلّي معًا من أجل إخوتنا الرَّاقدين. إنّ اسم هذه الجماعة "أذكرني في ملكوتك"، يدفعنا إلى طرح السؤال على ذواتنا: هل نتمتَّع بالجرأة الكافية لنطلب من الربّ أن يذكُرنا في ملكوته، وخاصّة إن لم نكن قد تذكَّرناه في حياتنا الأرضيّة"؟ وهنا نتذكَّر قول الربّ لنا: "إنَّ مَن يُنكِرني أمام النّاس، أُنكره أمام أبي الّذي في السّماوات". إذًا، على المؤمِن أن يذكر الربّ في حياته الأرضيّة، فيقوم بأعمال التضحيّة والحبّ تجاه الآخرين. إنّ أعمال الحبّ، هي كالنُّور، تُضيء ظلمات الآخرين.

اليوم، يُصادف عشيّة عيد القدّيس مارون. تضع لنا الكنيسة هذه الأعياد، لتدفعنا لا إلى التعلُّق بالقدّيسين بل إلى التفكير بالملكوت أي بالحياة الأبديّة، حيث الربّ يسوع، من خلال تأمُّلنا في سِيرَة حياتهم. في احتفالنا بعيد القدّيس مارون، نكتشف أنّ الحبّ الّذي علَّمنا إيّاه الربّ يسوع، ليس مستحيل العيش، بدليل وجود مؤمنِين قد أصبحوا قدّيسين بفضل عيشهم لهذا الحبّ. لم يَسْعَ القدّيس مارون يومًا إلى تحقيق غاياتٍ شخصيّة دنيويّة كتأسيس طائفة، بل كان اهتمامه مُنْصَبًّا على التعبير لله عن حبّه له من خلال تصرّفاته وأعماله مع إخوته البشر، فأشعَّ نوره في هذا الشَّرق، فكان شاهدًا للربّ في حياته. لقد كان القدّيس مارون مواليًا للعقيدة الكاثوليكيّة على الدّوام. لقد اعتمد بعض المسيحيّين في هذا الشَّرق، نهج القدّيس مارون، فأصبحوا منارةً في هذا الشَّرق تُشِعُّ إيمانًا وانفتاحًا على الآخرين.

مع اقترابنا مِن زمن الصّوم المبارك، وفي عشيّة عيد القدّيس مارون، نطرح السؤال على ذواتنا: كيف نستطيع أن نلمس هذا الحبّ الإلهيّ ونختبره في حياتنا؟ في اليوم الأوّل من الصّوم، يردّد الكاهن على مسامعنا الآية الكتابيّة قائلاً: "أُذكر يا إنسان أنّك تراب، وإلى التُّراب تعود". صحيحٌ أنّ الإنسان هو جبلة بشريّة ضعيفة، إذ إنّه من التُّراب، ولكن عليه ألّا ينسى أنّه "مِن الله خرج يوم معموديّته، وإلى الله يعود"، وبالتّالي هو مدعوّ للألوهة. صحيحٌ أنّ الإنسان هو خاطئٌ وضعيف، ولكنّ الله جعل منه إناءً يسكب فيه غفرانه، يوم يعود إليه تائبًا. صحيحٌ أنَّ الإنسان معرَّضٌ للمرض بسبب طبيعته البشريّة، لكن عليه ألّا ينسى أنّ الله قادرٌ على شفائه من كلّ داء وعلّة. قد يكون الإنسانُ أسيرَ البُغض والحقد والحسد، ولكن على الإنسان أن يتذكّر أنّ الله قد جَبَلَهُ من المحبّة. قد يكون الإنسانُ أنانيًّا في بعض الأحيان، غير أنّ على الإنسان أن يتذكّر أنَّ الله يدعوه إلى بذل الذات والتضحية في سبيل الآخرين. قد يستسلم الإنسان لأهوائه وملذّاته الدنيويّة، ولكن عليه أن يتذكّر أن الربّ يدعوه إلى التَّرفع عن كلّ الأرضيّات والتسامي صوب السماويّات. إنّ الحبّ وحده يستطيع أن يرفع مِنَ الأدنى إلى الأعلى. وهنا نتذكّر كلام الربّ، الّذي بذل نفسه حبًّا بنا قائلاً لنا إنّه متى ارتفع على الصَّليب، سيجذب إليه الكثيرين.

في هذا النّص الإنجيليّ، يُصلّي الربّ يسوع إلى الله الآب قائلاً: "يا أبتِ، نَجِّني من تلك السّاعة. وما أتَيتُ إلّا لتلك السّاعة" (يو ١٢: ٢٧). إنّ هذه الآية قد خضعت لتفسيراتٍ متعدِّدة: فمنهم مَن فسَّرها قائلاً إنّ الربّ يسوع، شعر بالخوف أمام الموت، شأنَه شأن جميع البشر، لذا سأل أباه أن يُنجّيه من تلك السّاعة. أمّا أنا فتفسيري لهذة الآية مختلفٌ تمامًا: إذ أعتقد أنّ الربّ يسوع قد قال هذا الكلام، لأنّه أدرَك أنّ بعض البشر لن يقبلوا بالخلاص، وبالتّالي لن يتمكّنوا من اختبار حبّ الله، وهذا ما سبَّب له آلامًا جمّة، إذ إنَّ أكثر ما يؤلم الحبيب هو عدم اكتراث المحبوب لهذا الحبّ.

في هذا المساء الّذي نحتفل فيه بذكرى السَّنوات التِّسع لنشأة جماعة "أذكرني في ملكوتك"، أودّ أن أهنّئ تلك الجماعة على العمل الّذي تقوم به في حثّ المؤمنين على عيش الشراكة مع أمواتهم من خلال الصّلاة، وبخاصّة في تقديم القداديس من أجل راحة أنفسهم. لذا تحتفل هذه الجماعة مع المؤمنين في الرعايا، وتدفعهم إلى تقديم تلك القدّاسات على نيّة أمواتهم المؤمنين. إنّ القدّاس يشكِّل نعمةً خاصّة للأنفس المطهريّة، إذ يتحقّق خلاص عددٍ كبيرٍ من هذه النّفوس أثناء القدّاس. إنّ الأنفس المطهريّة تتشوّق إلى تقديم الكنيسة المجاهدة على هذه الأرض، القدّاسات من أجل راحة أنفس الكنيسة المتألِّمة، إذ من خلالها، تتمكّن هذه النّفوس المطهريّة من الدّخول إلى وليمة عرس الحمل الدائمة، فتُصبح من أبناء الملكوت السماويّ.

في هذا المساء، أرفع الصّلاة في هذه الذبيحة الإلهية مع الآباء الحاضرين وكلّ المؤمنين وبخاصّة مع جماعة "أذكرني في ملكوتك"، من أجل جميع الموتى، وبخاصّة أمواتنا الأعزّاء على قلوبنا، وبنوع خاصّ أودّ أن أذكر أهالينا. كما أريد أن

أذكر أيضًا كلّ الأنفس المنقطعة، الّتي لا تجد مَن يذكرها في هذه الأرض. كما نطلب من الربّ، من خلال هذه الشراكة الّتي تجمعنا بأمواتنا، أن يُسكنهم في ملكوته ويريحهم مِن عذاباتهم. نصلّي اليوم لأمواتنا، عسانا نجد حين تأتي ساعة انتقالنا من هذا العالم، مَن يساعدنا من خلال صلاته وتقديم الذبائح الإلهيّة لأجلنا، لنتمكّن من الدّخول إلى الملكوت. المسيح قام، حقًّا قام!

ملاحظة: دُوِّنت العظة مِن قِبَلِنا بتصرُّف.